

الأدب العبري الحديث بين منشئه الأوروبي وبيئته الشرقية

الاستشراق الإسرائيلي يولي أهمية بالغة لدراسة الأدب العربي

اتسم الأدب العبري الحديث بأنواعه (الشعر/القص/المسرح) بالانفتاح والتأثر بالأدب الغربية الأوروبية سواء مع بدايات ظهوره في شرق أوروبا وغربها أو بعد انتقال مركزه الرئيس إلى فلسطين في مرحلة الهجرات، ويرجع ذلك إلى ارتباط أديبائه - بطبيعة الحال - بالتقاليد الأدبية الأوروبية التي نشأوا في ظلها وتأثروا بمساراتها قبل تعاقب الموجات اليهودية على فلسطين من ناحية، وإلى تبني اتجاهات الثقافة الغربية/الأوروبية كخطاب مركزي مؤسستاتي في الفترة التالية لتأسيس الدولة من ناحية أخرى.

نهلة راحيل
كاتبة مصرية



العبري الحديث نجد أنه يمكن أن تتمحور المراجعة النقدية للخطاب الأدبي العبري - في الأونة الأخيرة - في بعض المحاور التالية:

الجنود وما بعد الكولونيالية

كان للآداب العبري الحديث تأثيره المحفوظ في تجسيد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للجماعات اليهودية في أوروبا، ومن ثم استغلالها كأحد المبررات الداعية للحركة الصهيونية وطرح إقامة الدولة كمشروع وحيد لما يسمى بالمشكلة اليهودية آنذاك، وذلك في إطار سيطرة التيار الإلزامي - كما صاغه الفرنسي سارتر في كتابه "ما هو الأدب؟" - الذي يعتبر ما يكتبه الأديب وسيلة لخدمة أيديولوجيا محددة وليس فقط مجرد أداة للمتعة الجمالية.

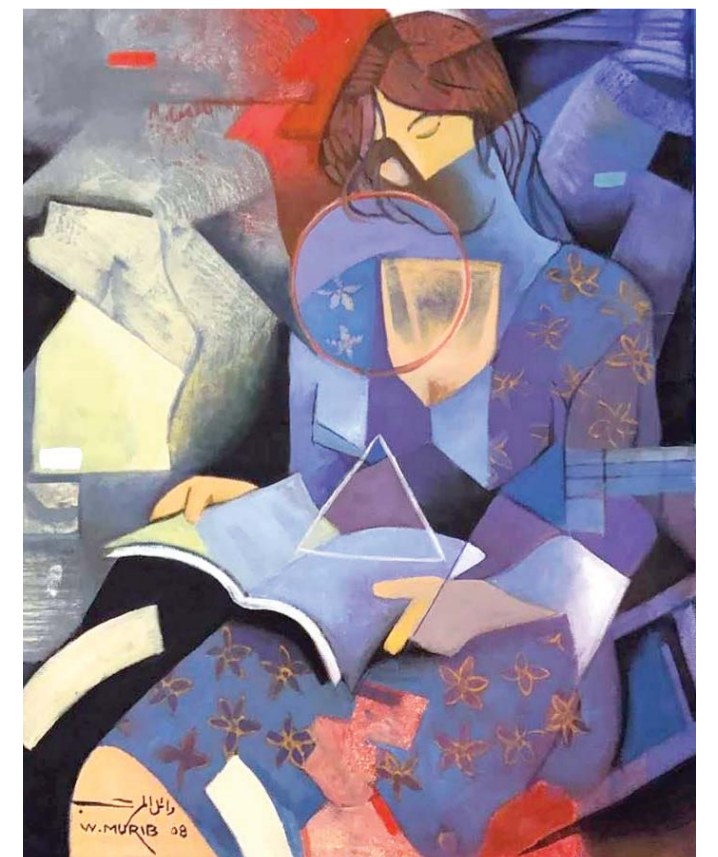
مع استمرار تطور اتجاهات الأدب العبري الحديث بدأ بروز التيار النقدي / التفكيكي ضمن موضوعاته، والذي رأى أن وجود دولة إسرائيل لم يكن حلاً لمشاكل الجماعات اليهودية كلها، وبالأخص في ظل فرض الهيمنة الصهيونية - الأوروبية على الأنظمة الاجتماعية والثقافية بالمجتمع، وتهميشها لآخر - اليهودي الشرقي أو اليهودي الأسود أو العربي الفلسطيني - ومحاولات صهره المستمرة داخل ثقافة غربية مختلفة عنه بدعوى الحفاظ على وحدة النسيج "القومي" الجمعي للدولة.

الترجمة بين الأديبين
العربي والعبري والدراسات
النقدية لها من أبرز محاور
الدراسات الاستشراقية
المعاصرة في إسرائيل

وتعد النسوية الشرقية أحد أهم مجالات دراسات الجندر المعاصرة في إسرائيل التي يحاول الباحثون بها رصد ما يعاني منه المجتمع الإسرائيلي من تمييز ببعديه: الجندي والعربي. وقد ركزت الكتابات المنجزة تحت هذا الحقل البحثي على نضال النساء الشرقيات سواء ضد الهيمنة الذكورية أو ضد السلطوية الأشكنازية السائدة، لذلك كانت أزمة الهوية التقاطعية الجندرية: المرأة - العرقية: الشرقية هي ما شكلت محددات الحراك الثقافي والنقدي في هذا المجال البحثي.

تعتبر حركة "أختي - من أجل النساء في إسرائيل" من الحركات التي تتبنى كل ما يسعى إلى إعلاء الصوت النسوي وإخراجه من دائرة الهيمنة الأشكنازية / الذكورية، وإلى إيجاد صيغ بديلة توثق القمع المزدوج الذي تعاني منه المرأة الشرقية قبل الهجرة إلى إسرائيل وبعدها.

ولذلك تبنت الحركة إصدار أنتولوجيا "إلى أختي: سياسة نسوية شرقية" التي تتضمن مقالات نقدية تنطرق إلى قضايا



المرأة وسيلة اختبار للأدب والفكر الشرقيين (لوحة للفنان وائل المرعب)



يهود الشرق مختلفون عن القادمين من الغرب

"الصدمة بضمير المتكلم: يوميات من فترة النازية" الصادر بالعبرية في عام 2012 والمترجم إلى الإنجليزية في عام 2017.

كما يتضح هذا الاهتمام البحثي في الحركة النقدية المكرسة لنقد أدبيات تلك الأحداث (سفر هوشوا) من سرديات ذاتية كاشفها والمذكرات واليوميات التي دونها المعاصرون للأحداث أو الناجون منها، أو من إنتاجات روائية وشعرية ومسرحية عالجت في نسيجها الإبداعي تلك القضية. ومن أبرز الكتابات النقدية في هذا المجال ما كتبه الناقدات حنا ياعوز ونوريت جوفرين وعماميا بليش، وكذلك الناقد دان ليثور الذي يعتمد نقده لأدبيات النازية على ربط الإبداع بالظرف التاريخي الذي يجسده والسياق السياسي الحاكم لكتابه وسيرة حياة كاتبه.

وتعد إسهامات إيريس ميلتر حول سرديات أدب النازية - وبالأخص ما كتبه الجيل الثاني الذي تربى في ظل تلك الأحداث ولم يعاشها - من أبرز ما يقدم على الساحة النقدية المعاصرة، حيث تهتم كتاباتها النقدية برصد مضامين الأعمال الأدبية كممثل نصي لفترة النازية وتكشاهد - اجتماعي وسياسي ونقسي - على الذكرة الجماعية ليهود أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية، كما نجد في كتابها "تصدعات الماضي: السيرة والهوية والذاكرة في قصص الجيل الثاني" (2003)، و"سرديات أدب النازية" (2008) والأخير يتضمن تحليلاً لبعض الإبداعات - العبرية واليديشية - التي كتبت أثناء الاحتلال النازي نفسه، بجوار طرح الرؤية النسوية إزاء أدب النازية بوصفها رؤية مغايرة تقف المسلمات وتعيد تعالمت مؤخرًا بعض الأصوات التي تنادي بمساواة طرد العرب من فلسطين بطرد اليهود من دول أوروبا. أثناء أحداث النازي، واعتبار ذلك بمثابة "نقطة مشتركة"، وهي فكرة يحاول البعض الترويج لها عن طريق المساواة بين "النكبة والنازية" بهدف الوصول إلى اعتراف متبادل بالأحداث. اتضح ذلك - مثلاً - في كتاب يائير أورو "النازية والإحياء والنكبة" الذي يعرض فيه قراءة تفسيرية بديلة لأحداث النازي وتأثيرها على إدارة اليهود لحرب 1948 على خلفية ما تعرضوا له من أحداث عنف، ويقدم قراءة نقدية لأعمال أدباء مثل أباكوفسر وس. يزاره ويورام كينوبوك.

الرؤية نفسها تبناها عاموس غولديبرغ بمشاركة شير بشير بروفيسور العلوم الاجتماعية بالجامعة العبرية في كتاب "النازية والنكبة: الذاكرة والهوية القومية والشراكة اليهودية العربية" (2015) الذي يتناول العلاقة بين النازية اليهودية والنكبة الفلسطينية ويناقشها معاً في السياق الإسرائيلي الحالي، لا بوصفها حدثين متشابهين إنما بوصفهما حدثين صامدين ومؤسسين لمصير "الشعبين".

من خلال تحليل الأدبيات العبرية المختلفة التي رصدت تفاصيل تلك الأحداث وحاولت تجسيد سلوك الجماعات اليهودية خلالها ونقل التجربة إلى وعي القارئ الإسرائيلي الحالي، أو من خلال القراءة التفسيرية لأحداث التاريخ الماضية وربطها بالسباق الأوروبي الاستعماري الذي وقعت داخله. وقد تابعت تلك الاتجاهات البحثية الشارحة لتلك الأحداث في السنوات الأخيرة بين رؤيتين مركزيين، الأولى تؤكد ضرورة تفسيرها بوصفها جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الأوروبي كله، وعدم النظر إليها على أنها ظاهرة خارج التاريخ استهدفت اليهود وحدهم، كما أكدت دراسات دان مخمان، ويهودا باور على سبيل المثال، والثانية تطرح تلك الأحداث بوصفها أحداثاً فريدة تخرج عن التاريخ نفسه ولا تخضع لحدوده

الخطاب ما بعد الصهيوني
يتبنى مقولات ما بعد الكولونيالية ويقوّض التراتبية الهرمية للثقافات

يتجسد هذا الاهتمام البحثي في صور العديد من الدوريات المخصصة للكتابة عن تلك الأحداث أو نقد الكتابات الأدبية والتاريخية المدونة عنها، على رأسها دورية السنوية "ديسم لحقير هسوا" (صفحات لبحوث النازية)، التي يصدرها "معهد دراسات النازية" التابع لجامعة حيفا، وتضم أعدادها مقالات مؤرخين ونقاد وباحثين من داخل إسرائيل وخارجها ممن يهتمون ببحث تاريخ الفترة النازية وتأثيرها على المجتمع الحالي، منهم المؤرخة سارة بندر والمؤرخ يهودا باور والباحثة في شؤون الناجين حنا يابلونكا وأستاذ تاريخ اليهود عاموس غولديبرغ.

وتعد دراسات عاموس غولديبرغ المتخصصة في تاريخ النازية من أبرز الكتابات في هذا المجال؛ حيث تركز بحوثه على التاريخ الثقافي والأدبي لليهود أثناء الفترة النازية، وتعتمد على إبراز التقاطع بين التاريخ والأدب في كتابات المعاصرين لتلك الأحداث - وخاصة يهود وارسو - والناجين منها، وينسب له التجديد في هذا المجال من خلال الربط بين دراسات النازية والدراسات ما بعد الكولونيالية بإفساح المجال لأصوات "الصاحيا" كي يسردوا قصصهم الخاصة التي تختلف تماماً عن الرواية التاريخية الرسمية للأحداث. كما جاء، على سبيل المثال، في كتابه الضخم (447 صفحة)

القومية" الخطاب ما بعد الصهيوني / ما بعد الكولونيالي نوعاً من "الشرقية الجديدة" التي تقند في الأساس المشروع الاستعماري / الاستشراقي العرقي الذي تبنته الصهيونية الأشكنازية، وتخلخل فرضياته الأساسية "الزائفة" القائمة على وحدة النسيج "القومي" وانسجام هوية "النحن" ودعم التوحيد "الثقافي".

ومن دراساته البحثية المهمة في هذا الصدد "تاريخ جديد أو خصوصية الذاكرة" التي يعيد فيها قراءة تاريخ الحركة الصهيونية ويربط تحققها بانتهاك بعض القيم الأخلاقية؛ بدءاً برفض المنفى والتضحية بيهود أوروبا خلال الفترة النازية، ومروراً بتهجير الفلسطينيين عن قراهم عام 1948، وانتهاء بقمع اليهود الشرقيين داخل سياسة بوقعة الصهر.

تبني الموقف ذاته الناقد والشاعر سامي شالوم شطريت الذي يكشف النقاب - في دراسته المختلفة ومن أهمها "الصراع الشرقي في إسرائيل" - عن الخطاب الصهيوني / الكولونيالي الذي يستبعد ثقافات يهود الشرق ويعددهم أقلية هامشية، ويوجه حديثه في المقام الأول إلى اليهود الأشكناز كممثلين للأغلبية الثقافية الحاكمة، فالصهيونية - في رأيه - حركة قامت على الأهداف الأساسية للاستعمار وأنحتها مشاعر التملك والإحساس بالفوق لدى شعوب أوروبا، مما كان له الدور الحاسم في تعيين وضع اليهود القادمين من الدول العربية وفي تحديد النظرة إلى الثقافة التي يمثلونها، والحكم بضرورة "إصلاحها" كشرط للانضمام إلى المجموع.

وقد شغلت الناقدة إيليا شوحيط جزءاً كبيراً في الدراسات ما بعد الكولونيالية متأثرة بما طرحه إيوارد سعيد عن القضية الفلسطينية وتعريفه للصهيونية بوصفها امتداداً مباشراً للمشروع الأوروبي الاستعماري ومنغذاً لإجراءاته التعسفية تجاه الشرق، فهي صاحبة آراء تدحض النتائج السلبية للصهيونية ليس على الشرق الذين جردوا من حق تمثيل أنفسهم وتعرضوا إلى إنكار تاريخهم ووعيهم الثقافي لأسباب تخص الصهيونية كحركة أوروبية استعمارية هدفت إلى خلق هوية إسرائيلية / أوروبية مهيمنة تقوم على تاريخ رسمي واحد، لذلك وضعت نفسها في موضع السيد وحولت الفئات الأخرى إلى وضعية التابع.

دراسات النازية والاستشراق

دراسات النازية اتجاه بحثي بارز في المجتمع الإسرائيلي يعتمد على "نقاش" الدروس المستفادة من الحقبة النازية، والتي تستخدم كتبرير للمطالبة بسيادة اليهود على فلسطين، وإعادة تفسير السلوكيات الصهيونية تجاه يهود أوروبا في فترة أحداث النازي وما قبلها، سواء

الهوية والطبقية والعنصرية وعدم المساواة من منظور نسوي شرقي، وتخللها قصص وقصائد وشهادات باقلام أدبيات شرقيات يروين تجاربهن الشخصية مع التهميش، السياسي والاجتماعي والثقافي، داخل المجتمع الإسرائيلي، وما تعرضن له من إقصاء على خلفية عرقية وجندرية. ومنذ صدور أنتولوجيا في عام 2007 أصبحت دراساتها مكوناً رئيساً في العديد من المناهج الدراسية بالجامعات التي تهتم برامجه الأكاديمية بمسائل الهوية الشرقية ودراسات الجندر.

وتعد دراسات الإسرائيلية / المغربية هنرييت داهان كاليب أستاذة العلوم السياسية ودراسات الجندر بجامعة بن غوريون من أبرز ما يُكتب في هذا الصدد على الساحة النقدية العبرية. ومن أبرزها مقالاتها "الحركة النسوية بين الشرقية والأشكنازية" الذي تقر فيه بأن المجتمعات الديمقراطية القائمة على التعددية ظاهرياً - كالمجتمع الإسرائيلي - يكون فيها إقصاء الآخر أكثر نجاحاً؛ لأنه يستند على حل سياسية خفية تبث إجراءاتها عبر وسائل الإعلام والمناهج الدراسية والمعاملات اليومية، خلافاً للأنظمة القمعية التي تقوم على العنف الواضح والعدوانية الظاهرة للجمع.

وقد تجسدت قيم الهيمنة الغربية في الحركة الصهيونية بوصفها ممارسة كولونيالية أوروبية قائمة على ثنائية الغرب / الشرق في الأساس تتوجه إلى "الأخر" بخطاب استعلائي يتوافق مع الخطاب الكولونيالي الغربي، فعدمت إلى إقصاء الثقافات المغايرة ودفع أصحابها للذوبان في الثقافة الأوروبية / الأشكنازية السائدة، فنشأ خطاب ما بعد صهيوني - يتبنى مقولات ما بعد الكولونيالية - يقوّض الفرضيات الصهيونية الرسمية وما تدعمه من التراتبية الهرمية للثقافات، وتعرض المواجهات الإشكالية بين الثقافات المحلية والثقافة الأشكنازية الرسمية.

وهذا الخطاب ما بعد الكولونيالي / ما بعد الصهيوني تبناه العديد من الباحثين على الساحة النقدية الحالية، من أهمهم يارون إزرهي أستاذ التاريخ والعلوم السياسية الذي يرى في دراسته "الخطاب ما بعد الكولونيالي الإسرائيلي" أن دولة إسرائيل تمارس في الوقت الحالي نوعاً من الاستعمار الجديد "Neo-Colonialism" ضد مواطنيها، عن طريق محاولات المستمرة لمحو هوياتهم الأصلية متخفية وراء مقولات تعميمية مثل: "التقدم" و"التنوير" و"المواطنة" وغيرها، مما قد يسهم - في ظلها - في تحديد العلاقة بين الدولة والفرد، وصهر الثقافات المتعددة في بوتقة إسرائيلية واحدة بهدف خلق مجتمع جديد ومنجانس.

هذا بجوار المفاهيم ما بعد الكولونيالية التي انشغل بها كل من أوري رام أستاذ علوم المجتمع الذي يعتبر في دراسته "ما بعد الصهيونية وزعزعة الهيمنة